بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

* أن بعض الذين يشتغلون بالفلسفة الاسلامية يرونها فقط فى مجال ما أثر عن الاغريق ، أو ما أثر عن الفلسفة الشرقية . وتبعا لذلك يرون الفكر الاسلامى هو ذلك الفكر الذى عالج قضايا الفكر الدخيل فى العصر الوسيط ، سواء بالملاءمة بينه وبين مبادىء الاسلام ، أو برفضه كليا أو جزئيا .

وما عدا هذا الفكر للمسلمين يدخل فى نطاق « الفكر الدينى » : فى مجال الدفاع عن العقيدة ، أو مجال الفقه وتكييف أحداث الحياة الانسانية واعدادها للطابع الاسلامى ، عن طريق الاجتهاد .

ولكن هذه النظرة لتفكير المسلمين تقصر عن أن تسع تاريخ الفكر الاسلامى ، اذا ماعرف هذا الفكر من واقعه وانه : الفكر الذى يحافظ على قيمة الايمان بالاسلام ، وقيمة المبادىء التى جاءت بها رسالة الاسلام للانسان فى حياته الفردية أو فى مجتمعه مع غيره .

فقد يرى هذا الفكر حرصه على بقاء هذه القيمة للايمان فى : مواجهة الفكر الدخيل ، وتحليل عناصره وتقييمها . وقد يرى هذا الحرص فى : الكشف عن « الضعف » الداخلى فى اتجاه المسلمين وانحراف مذاهبهم ومدارسهم ، واختلاف أحزابهم . والفكر الدخيل فى وقت قد يكون له طابع وهدف ، وفى وقت آخر لاحق قد يكون له طابع وهدف يختلف فيها عن ذى قبل . والضعف الداخلى فى اتجاه المسلمين ومذاهبهم قد يكون لعوامل معينة فى زمن ، تأتى عوامل أخرى بديلة عنها فى زمن آخر .

ولذا : فالفكر الاسلامى فكر مستمر لايقف عند حقبة معينة من الزمن ، ولا عند مفكرين معينين فى جيل من الأجيال .

فان واجه الايمان بالاسلام الفكر الاغريقى والفكر الفارسى أو الهندى فى وقت ما بالأمس ، فانه يواجه فى وقت آخر بعده : الفكر العلمانى الصليبى ، والفكر الالحادى الماركسى اليوم .

وان واجه هذا الايمان الضعف الداخلى الذى كان يتمثل فى الخصومة المذهبية والطائفية بين المسلمين أنفسهم ، فانه يواجه اليوم ضعفا داخليا آخر يتمثل فى « تبعية » تتمثل فى خصومة مذهبية وطائفية كذلك ، ولكن لغير المسلمين .. لأعداء الاسلام .

* ولذا فللفكر الاسلامى عهود ومراحل . وفى كل عهد أو فى كل مرحلة له قضايا وله رجال . وأى عهد وأية مرحلة تختلف عن عهد سابق أو عن مرحلة اخرى قبلها .

وهذا الكتاب : « الفكر الاسلامى فى تطوره » قصد به القاء نظرة على مراحل هذا الفكر ، واعطاء صورة لوجوده وامتداده الى اليوم الذى نعيش فيه الآن .

وهو اذ يبرز فى بعض فصوله مواجهة التفكير لدى المسلمين للفكر الدخيل على أمتهم ودينهم ، ويوضح فى بعض فصوله الأخرى مواجهة هذا التفكير للضعف الداخلى الناشى عن الخصومة المذهبية الطائفية .

وبهذا وذاك يوصل حلقات التفكير عند المسلمين بعضها ببعض ، وان اختلف موضوع التفكير وتعددت أو اختلفت العوامل التى تضطر وتدفع اليه .

وبهذا الوصل بين حلقات التفكير ينير هذا الكتاب الطريق لقارىء الفكر الاسلامى ولدارسه أيضا ، نحو هدف الفكر الاسلامى منذ نشأته ، ونحو عدم الوقوف بتاريخ هذا الفكر عند حقبة معينة من الزمن ، أو عند مجموعة خاصة من المفكرين ، ينتسبون فى تفكيرهم الى موضوع خاص .

وبهذا الوصل كذلك اذا اعتبر الفكر الاسلامى فى لقائه أو فى مواجهته للفكر الاغريقى ، وللفكر الفارسى والهندى ، على عهد العباسيين فلسفة اسلامية ، فانه اليوم فى مواجهته للفكر الأوروبى العلمانى ، أو للفكر الآخر الماركسى اللينينى يعتبر أيضا فلسفة اسلامية ، وفلسفة اسلامية معاصرة .

كذلك — بهذا الوصل — اذ اعتبر نقد ابن تيمية فى القرن السابع الهجرى ، والحركات الاسلامية الأخرى بعده التى تأثرت به ، لضعف المسلمين الناشىء عن الحزبية الفكرية ، والخصومة الطائفية والمذهبية ، فلسفة اسلامية ، فان نقد « التبعية » للغرب أو للشرق اليوم ، وللكتلة الاستعمارية الرأسمالية ، أو للكتلة الاستعمارية الماركسية الشيوعية ، يعتبر فلسفة اسلامية ، وفلسفة اسلامية معاصرة . اذ هذه التبعية أيضا ضعف ناشىء عن تحزب فكرى وخصومة طائفية ومذهبية ، كذلك الضعف على عهد ابن تيمية .

وطالما كان الفكر الاسلامى — كما يحاول الكتاب أن يعرضه — هو فكرا للحفاظ على الايمان بالله والقيم الاسلامية . فتأييد هذا الحفاظ ، أو نقد ما يضعفه أو يواجهه فى تحد من أسباب ، هو فكر اسلامى : فى عهد مضى ، أو فى حاضر ، أو فى آت .

والله الموفق ، والمعين ، وعليه توكلت واليه أنيب .

محمد البهى

مصر الجديدة فى ربيع الأول سنة ١٣٩٠هـ
مايو سنة ١٩٧٠م

تمهيد

الفكر الاسلامى هو المحاولات العقلية من علماء المسلمين لشرح الاسلام فى مصادره الأصلية : للقرآن ، والسنة الصحيحة :

١ ــ اما تفقها واستنباطا لأحكام دينية فى صلة الانسان بخالقه فى العبادة ، أو فى صلة الانسان بالانسان فى المعاملات ، أو لمعالجة أحداث جدت ، لم تعرف بذاتها فى تاريخ الجماعة الاسلامية ــ على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد صحابته رضوان الله عليهم ــ أو تبريرا لتصرفات خاصة صدرت وتمت ، أو تصدر تحت تأثير عوامل أخرى .

٢ ــ واما توفيقا بين مبادىء الدين وتعاليمه من جانب ، وفكر (١) أجنبية دخلت الجماعة الاسلامية من جانب آخر ، بعد أن قبلت هذه الفكر كمصدر آخر للتوجيه .

٣ ــ أو دفاعا عن العقائد التى وردت فيه ، أو ردا لعقائد أخرى مناوئه لها ، حاولت أن تحتل منزلة فى الحياة الاسلامية العامة ، لسبب أو لآخر .

... الى غير ذلك من الدوافع والأسباب التى تدعو الى اعمال الفكر فى المحافظة على الطابع الاسلامى . كما يراد له ان يكون او يبقى ذا صبغة اسلامية .

وهذه المحاولات العقلية لم تبدو كظاهرة عامة فى الجماعة الاسلامية الأولى أيام الدعوة الى الاسلام فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا فى عهد الخلفاء الراشدين من أصحابه . بل شغل هذا الوقت ، أو اشتغل فيه المسلمون بنشر الدعوة وتمكين الجماعة الاسلامية من الاستقرار ، وارساء الحياة الاسلامية فيها على مبادىء القرآن والسنة الصحيحة :

---

(١) بكسر الفاء وفتح الكاف وكسر الراء .

بالتطبيق العملى لوصايا الاسلام ، وعدم الانفكاك عن الأسلوب الذى التزم به الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه فى تصرفاته .

ولكنها (أى هذه المحاولات) وضحت — كظاهرة عامة — يوم أن خف ايمان المسلمين بالاسلام ، وشغلت الحياة الدنيا ركنا فسيحا فى قلوبهم ، وأضطروا من أجل ذلك الى الملاءمة بين اسلامهم كدين وعقيدة ، وبين تصرفاتهم فى هذه الحياة تبعا لمنزلة هذه الحياة الدنيا التى صارت اليها فى تقديرهم ، بعد أن كانت الدنيا كلها على هامش حياة السلف من قبلهم .. بدت هذه الظاهرة فى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى ، وأصبح منذئذ يؤرخ لفكر اسلامى ، ولاتجاهات فكرية اسلامية مختلفة .

ومنذ ذلك الوقت حتى الآن قطع الفكر الاسلامى مرحلتين . ونعيش الآن نحن فى الثالثة .

* قطع المرحلة الأولى : وهى مرحلة التكوين . وفيها تكونت اتجاهاته الأساسية ، ومدارسه المختلفة :

فتكونت مذاهب العقيدة ،

ومذاهب الفقهـــاء ،

ومدارس الصـــــوفية ،

ومدارس الفلسفة ،

ومذاهب التفسير للقرآن الكريم ،

كما تكونت واتسعت الفجوة بين الشيعة والسنة .

وترجع العوامل التى ساعدت على تكوين هذه الاتجاهات الفكرية جميعها الى :

أولا : الى تأثير الأحداث المحلية ، والانقلابات الداخلية . فقد عاون هذا العامل على تأسيس مذاهب العقيدة فى « الامامة » . ورأينا رأيا :

(أ) للخوارج (بزعامة الأشعث بن قيس) ،

(ب) وللشيعة الزيدية والامامية ، والغلاة أو الاسماعيلية الباطنية .

(جـ) وللمحايدين ، كعبد الله بن عمر ، وسعد بن أبى وقاص ،

(د) وللمرجئة ، كغيلان الدمشقى ،

ثم رأينا المدرسة الاعتزالية ،

والصـــفاتية أو الأشعرية ،

.. كل واحدة منها تدلى برأيها فى الامامة ، كما تدلى بالرأى فى بقية المسائل الأصولية والاعتقادية .

وثانيا : إلى تسرب الفكر الأجنبى الوثنى المصرى (فى الاسكندرية) ، والدينى الشرقى : البوذى ، والبرهمى ، والزرادشتى ، والمانوى المسيحى ، واليهودى ، والفلسفى الاغريقى .

وهذا الأخير أحدث :

(أ) المذاهب الفلسفية ، التى منها :

١ ــ الاتجاه الفلسفى لما بعد الطبيعة ، وهو الذى يمثله ابن سينا فى المشرق ، وابن رشد فى المغرب .

٢ ــ والاتجاه الفلسفى الطبيعى ، الذى يمثله أبو بكر الرازى .

٣ ــ والاتجاه الفلسفى الاشراقى الذى يمثله السهروردى المقتول .

(ب) ... كما ساعد على نشـــأة :

١ ــ التصوف الزهدى ، الذى يمثله الحارث المحاسبى .

٢ ــ والتصوف الفلسفى ، الذى يمثله الغزالى .

٣ ــ والتصوف الهندى المسيحى الأفلاطونى الحديث ، الذى يمثله ابن عربى . وابن سبعين ، والحلاج .

وثالثا : الى مواجهة احداث الحياة ، وتطور المجتمع الاسلامى :

من مجتمع بسيط الى مجتمع حضارى مركب ،

ومن سياسى محلى الى سياسى عالمى أو دولى .

وهذا العامل كون مدارس للفقه المختلفة التى تتوزع : بين أصحاب الحديث ، وهم أهل الحجاز :

١ ــ أصحاب مالك بن أنس .

٢ ــ وأصحاب محمد بن ادريس الشافعى .

٣ ــ وأصحاب سفيان الثورى .

٤ ــ وأصحاب أحمد بن حنبل .

٥ ــ وأصحاب داوود بن على بن الأصفهانى الظاهرى .

وهؤلاء جميعا يقدمون الخبر عن الرسول عليه الصلاة والسلام على القياس الجلى والخفى . ويروى عن الشافعى قوله :

« اذا وجدتم لى مذهبا ، ووجدتم خبرا على خلاف مذهبى ، فاعلموا : أن مذهبى ذلك الخبر » .

... وأصحاب الراى ، وهم أهل العراق ، أصحاب أبى حنيفة النعمان ابن ثابت .

وهؤلاء ربما يقدمون القياس الجلى على أخبار الآحاد التى تنسب اليه عليه الصلاة والسلام ، اذ يروى عن أبى حنيفة قوله :

« علمنا هذا رأى ، وهو أحسن ماقدرنا عليه ، فمن قدر على غير ذلك ، فله مارأى ولنا مارأيناه » .

وتفاعل الفكر الاسلامى مع أحداث الحياة الانسانية فى الجماعة الاسلامية قانون عام تخضع له أية جماعة انسانية ، كما يخضع له الفرد نفسه :

فيما وقع فيها من خلاف حول الرياسة العامة للدولة ، وما تسرب اليها من فكر (١) انسانية ، وتعاليم دينية دخيلة ــ يقع ويتسرب مع أية جماعة انسانية ، متى توافرت الظروف التى تساعد على وقوع ذلك .

وتطور الحياة نفسها من بسيطة الى معقدة ، ومن محدودة الجوانب

---

(١) بكسر الفاء وفتح الكاف وكسر الراء .

الى كثيرة الجوانب — مبدأ يقضى به التوسع والخروج عن عزلة الحياة الضيقة لأية جماعة نمت وتزايدت .

والعامل الأول من هذه العوامل الثلاثة المجددة للفكر الاسلامى فى المرحلة الأولى — وهو تأثير الأحداث المحلية والانقلابات الداخلية — ان كان صاحب أثر سلبى على وحدة الجماعة الاسلامية ، ومال بالجدل العقلى الى خصومة انحرف فيها طرفا الخصومة عن حد الاعتدال ، وعن مقاييس المنطق الانسانى ، والمعايير السليمة الواضحة للدين والتدين .. فان العامل الثانى، وهو تسرب الفكر الأجنبية الدينية والفلسفية ، قد أظهر فى وضوح قبول الاسلام لتحدى هذه الفكر ، ولم تستطع أن تفرض عليه توجيهها الخاص .

والعمل العقلى الفلسفى للمسلمين يبرهن :

اما على هضم الاسلام لهذه الفكرة وادخالها فى محيط تعاليمه .

واما على وهنها (أى وهن هذه الفكر) وعدم استطاعتها الوقوف أمام اختبار العقل الصحيح .

وهذا يدل من جانب آخر على : أن الاسلام يستطيع أن يواجه أية ثقافة فكرية انسانية دون أن يخشى عليه ، طالما وجد من المنتسبين اليه من يستطيع فهمه فى أصوله وغايته .

وكذلك الشأن بالنسبة للعامل الثالث ، وهو مواجهة أحداث الحياة وتطور المجتمع الاسلامى ، فان تفاعل الاسلام مع هذا العامل كان تفاعلا خصبا منتجا . وبرهن على مرونة الاسلام فى مبادئه بفضل الاجتهاد ، وعلى سعة استيعابه للمستجد من مشاكل الحياة :

فالفقه الاسلامى تدل كثرة مذاهبه ومدارسه على سعة محاولة لتكييف الأحداث من وجهة نظر الاسلام .

والخلاف الذى بينها فى اعتبار بعض أصول التفقه والمراجع التى ترد اليها أحكام الحوادث ، لم يكن الا خلافا ناشئا عن رغبة المختلفين فى ضرورة الحرص على بقاء الجماعة الاسلامية آخذة بالاسلام فى منهاج حياتها اليومى :

فتقديم الخبر والرواية على القياس ،

أو تقديم القياس على خبر الآحاد ـــ وهو الخلاف الذى بين أهل الحديث وأصحاب الرأى فى المدارس الفقهية ـــ بهدف من الطرفين المختلفين فى التقدير على هذا النحو الى عدم اغلاق حدث من الأحداث من أن تكون له صبغة اســـلامية .

فخبر الآحاد ـــ لأنه آحاد ـــ لايزيد فى قيمته الحجية فى واقع الأمر على قيمة الحاق أمر لم ينص على حكمه بأمر آخر نص على حكمه فى الكتاب أو السنة الصحيحة المعتمدة ، وهو مفاد القياس .

كما يدل استيعاب جوانب الحياة المختلفة على مدى تفاعل الاسلام مع مبدأ تطور الجماعة الاسلامية كجماعة انسانية :

فلم يقف عند حد تحديد شأن عبادة المخلوق لخالقه ، والكيفية التى تؤدى بها هذه العبادة . بل تجاوز ذلك :

الى علاقة الأفراد بعضهم ببعض كرعية ،

وعلاقتهم بمن يقوم على ولايتهم كراع ،

وعلاقته بهم كاخوان له فى الاســـلام ،

ثم علاقة الجماعة الاسلامية فى الاسلام فى جملتها بجماعة أخرى أجنبية لاتدين بالاســـــلام .

واستطاع المجتهد الأول ـــ وأصحاب المذاهب الفقهية ، أن يوجدوا أنواعا متعددة من الفقـــه ،

واصبحوا يعرضون فى ندواتهم وتواليفهم :

لفقـــه العبـــادة ،

بجانب فقه العقود ،

وفقه التجارة والاقتصـــــاد ،

وفقه الأسرة ،

وفقـــه التركات وتوزيعها ،

وفقـــه العقوبات ،

وفقـــه الظروف الاستثنائية أو فقه المصالح المرسلة ،

وفقـــه الحـــرب والأسر ،

وفقه الهجوم والدفاع ، وهو فقه الجهاد .

كما تعرضوا لتصفية بعض النظم الاجتماعية السابقة على الاسلام : كنظـــام الرق ،

أو لتقييدها : كنظـــام الزوجية .

... وهكذا فى هذه المرحلة نجد تفكير المسلمين قد تفاعل مع الحياة التى يعيشون فيها ، ونجد المسلمين قد صاغوا جوانب حياتهم المختلفة صياغة اسلامية ، مع سلبية فى بعض هذه الجوانب ، وايجابية واضحة فى البعض الآخر . شأن كل جماعة انسانية فى تبلور حياتها من مبدأ ، أو فكرة ، أو عقيدة ارتضتها لنفسها كأساس فى التوجيه بها .

* * *

* وقطع الفكر الاسلامى المرحلة الثانية ، وهى مرحلة اعادة بناء المجتمع الاسلامى .

وفى هذه المرحلة :

استخلصت أسباب الضعف ، وعوامل تمزيق الوحدة الاسلامية .

كما حددت من جانب آخر عوامل التقريب ، واعادة التماسك من جديد .

وترجع عوامل اضمحلال الفكر الاسلامى فى هذه المرحلة التى دفعت الى التفكير فى اعادة البناء من جديد :

اولا : الى الأثر السلبى لمذاهب الفكر الاسلامى فى المرحلة السابقة . هذا الأثر الذى جاء :

نتيجة لحال الانحدار نحو الضعف الذهنى ،

والتعصب فى غير احتياط ،

والافراط فى التقليد والغاء الشخصية الانسانية المتأخرة ،

والجنوح بتعاليم الاسلام الى ما هو بعيد عن الاسلام .

وثانيا : الى أثر الاعتداء الذى قام به التتار من الشرق ، والى غزاة الصليبيين من الغـــرب .

أما العوامل التى رآها أصحاب الدعوة الى اعادة بناء المجتمع الاسلامى فانها ترجع :

أولا : الى اضعاف التعصب لمذاهب المرحلة السابقة ومدارسها المتنوعة .

وثانيا : الى فصل ماليس باسلام مما هو اسلام ، عن طريق الرجوع الى القرآن والسنة الصحيحة ، واعتبارهما أساسا للرأى فى ذلك ، وفى طبع أحداث الحياة بطابع اسلامى .

وهـــذا العامل الثانى يستدعى :

اضعاف « التقليد » من جهة ،

والدعوة الى « الاجتهاد » من جهة أخرى .

وقد حمل لواء الحركة الفكرية فى هذه المرحلة الثانية :

١ ــ محمد بن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية .

٢ ــ ومحمد بن عبد الوهاب ، كمقدر لحركة ابن تيمية وحريص على صـــيانتها .

٣ ــ ومحمد بن على السنوسى الكبير ، كداعية الى الرجوع الى القرآن والسنة ، وتخليص الفكر الاسلامى من مظاهر ضعفه وركوده .

٤ ــ وعثمان بن محمد بن فودى (١٢٣٢هـ ــ ١٨١٧م) الداعى الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة فى غرب افريقيا .

* أما المرحلة التى لم يزل الفكر الاسلامى يعيش فيها حتى الآن : فى تحد وصراع ، فهى :

تلك المرحلة التى ظهر فيها الاستعمار الغربى والاستعمار الشرقى ويحاولان السيطرة على توجيه المسلمين فيها .

وفى هذه المرحلة الراهنة الحرجة يتجه الفكر الاسلامى مرة الى تأييد الاستعمار ، أو على الأقل يتجه الى الولاء له .

وبدا هذا الاتجاه فى بحوث بعض زعماء « الاصلاح » فى الهند ، وفى مقدمتهم السيد أحمد خان .

كما بدا فى نشأة بعض المذاهب الدينية الجديدة داخل الجماعة الاسلامية، كمذهب الأحمدية الذى تفرع عنه فيما بعد مايسمى « بالقاديانية » .

وبالاضافة الى هذا وذاك بدا هذا الاتجاه كذلك :

فى دراسة المستشرقين للاسلام ، وتصدير هذه الدراسة الى المسلمين وتقديمها اليهم فى صورة بحوث أو فى صورة توجيه جامعى ، أو تنوير عام .

كما بدا فى استجلاب الفكر الماركسى اللينينى ، و « الماوى » وتقريبه الى الاسلام باسم الثورة الاجتماعية و « التقدمية » نحو : ديكتاتورية الطبقة العاملة العالمية .

واتجه الفكر الاسلامى مرة أخرى فى هذه المرحلة الى مقاومة الاستعمار الغربى والشرقى ، ومقاومة تلك المذاهب والبحوث الفكرية الاسلامية التى خلقها لمعاونته فى تمكين سلطاته فى رقعة البلاد الاسلامية .

وبدا هذا الاتجاه فى حركة جمال الدين الأفغانى .

ثم فى حركة الشيخ محمد عبده ومدرسته الاصلاحية بعده .

ثم فى دعاة آخرين بعدهما — كاتبال وغيره — لتوضيح خطر الاتجاهين على الاسلام والمجتمعات الاسلامية .

منذ بداية القرن العشرين أخذ التفكير الاسلامى اما :

طابع « التجديد » ،

أو طابع الاصلاح الدينى .

دون أن تكون للحركة « التجديدية الفكرية » الآن صلة مباشرة بمعاونة الاستعمار ، على نحو ماكان الاتجاه الفكرى الذى قام طول نصف القرن الأخير بمساندة الاستعمار وطبع نفسه بطابع « التجديد » أو « الاصلاح » وهو اتجاه السيد أحمد خان ، ومذهب الأحمدية فى الهند .

فقد قام كلاهما لخدمة الاستعمار ، ولكنه غطى هذا الهدف باسم التجديد والاصـــلاح .

ومع كون حركة التجديد فى الفكر الاسلامى فى هذا القرن العشرين لم تكن بأملاء الاستعمار الغربى مباشرة ، فانها مع الأسف الشديد تعاونه على ازدياد نفوذه لأنها ترديد اما للفكر الغربى ونظرته الى الاسلام ؛

أو للفكر الغربى الطبيعى ونظرته المادية فى الحياة .

وبذلك تعتبر (هذه الحركة التجديدية) من حيث الأثر السلبى على « القيم الاسلامية » استمرار لاتجاه معاونة الاستعمار المكشوفة فى القرن الماضى ،

بل كانت فى سلبيتها أشد وأقسى على هذه القيم ، لأنه لم يتصل بها اتهام معاونة الغرب المستعمر ، كما صاحب هذا الاتهام حركة التجديد الماضـــــية .

ودراسة الفكر الاسلامى فى هذه المراحل الثلاث تعنى قبل كل شىء ببيان العوامل الايجابية ، والأخرى السلبية ، التى لها أثر مباشر اما فى قوة المسلمين ودفعهم الى الأمام ، أو فى ضعف المســـلمين وتمزيق كتلتهم وابعادهم عن سيادة أنفسهم على أنفسهم .

* * *